النص .. هذا المعلوم المجهول

أ.د. عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان ـ الجزائر

1) أي شيء هو النص؟ لقد قدمت مراراً وتكراراً كلمة وأخرت جملاً وفقراً قبل أن أجتزئ على تناول هذا الشبح الرهيب المتعلق بشيء يشتهى ولا يذاق، ويستلذ حدساً ولا يدرك حجزاً، ويتراءى لنا سطحاً ولا يمنح لنا منافسة لسبر غوره عمقاً أو التجوال في داخله، قد يغرينا بولوج عالمه المشيد عادة بفونيمات ووحدات دالة وجمل وفقر، من مدخل ننطلق منه دون أن يتيح لنا فرصة للخروج منه مرة أخرى، ولكن الخروج منه حرّ متى شئنا، المهم ألا نخرج من حيث ولجنا، قد نستعذب مدونته الصوتية والمعجمية والبلاغية وربّما أُخِذْنا أَخْذًا بجماليته التي لا تفسير لها، فَنُغْزَى أو هكذا يخدعنا لقراءته مرتين ومرات، ولكن اقتحامه لن يكون إلا من باب واحد، أما الخروج منه فليس مانعاً لديه أن يتم، حسب طلبنا، لكن من مخارج شتى، إنه تلك المدونة المتداولة شفهيا أو المنسوجة بسلسلة كلامية خطياً، إنه المسمى "نصاً".

1-1) نص واحد أم نصوص؟

هل هناك نص واحد أم نصوص؟ وهل النص هو الذي يسمى نصاً بما يمسك به من أجناس أدبية شتى أم الجنس الأدبي أو الإبداع الفني المتشخّص في أشكاله اللسانية هو الأجدر بأن يدعى "نصا"، وما عدا كل هذا هراء وفضول من تقدير التلقي أم هما غرضان من أجل غرض واحد، من أجل ميلاد قضية مصطلح عليها سلفاً بعلامة "نص"؟

2-1) إشكالية "نص"؟ لا ندري ماذا تعني دلالة "texte" في أصلها المقابل "نصا" في العربية. ومادة "نص" في اللغة العربية من المواد الشحيحة في اشتقاقاتها، فهي لا تكاد تعدو خَمْسَ الدلالاتِ، وليس هذا مهماً مادام الانطلاق في بحث موضوع من كلمته لم يعد الطريقة المثلى للوقوف فعلاً على فحوى هذه الكلمة التي تطورت أو تغيرت وأضحت تدل على مصطلح لم يعد يرتبط إطلاقاً بجذر الكلمة ومعاني اشتقاقاتها، وهذا ما نلاحظه في مادة "نَصَّ" في لغتنا العربية: إذ ما معنى "النص" الدال على سير الناقة الشديد، ونصصت العروس إذا أُجْلِسَت على منصة، ونص كل شيء إذا دلّ على منتهاه، ونصنصت الشيء إذا حركته... بما غدا تدل عليه مصطلح "النص le texte" منذ

أمد بعيد في مجالي اللغة والنقد والأدب، ولكنا مع ذلك نشتم من هذه المادة علاقة بعيدة بما يعنيه اليوم النص في اللسانيات من خلال أحد أقوال الإمام علي: "إذا بلغ النساء نَصَّ الحِقَاقِ"[1]، والنص لا يكون نصاً إلا إذا بلغ منتهاه كالذي يقر له منتجه الأجدر بإنهائه إن كان هناك فعلاً إنهاءٌ، وفي حديث "كان عليه السلام إذا وجد فُرْجَة نصَّ"[2]، غير أن مادة "نص" تطوّرت دلالاتها في العربية تطوراً متشعباً متبايناً ليس من هدفنا هنا تتبعها وحصرها، خاصة إذا آمنا بأن الانطلاق في عمل من "الكلمة" لانطلاقٌ غير مصيب.

ويجب أن نشير إلى أنه ليست المرة الأولى ولا الثانية التي نقف فيها على إشكالية "النص"، إلا أنّ ما بدر منا حوله من ذي قبل لم يكن إلا مبحثاً تناصّياً أو عرضيا في ثنايا حديثنا عن القراءة والكتابة بخاصة والعمل الإبداعي بعامة، وينبغي ألا يفهم من تلميحنا هذا أننا سنلمّ بكل الجوانب التي ستضيء هذه الإشكالية فضلاً عن أن تتطفل حولها للبث فيها بصورة تحليلية نهائية، إننا سنحاول أن نعالج هذه الإشكالية في هذا المبحث علاجاً مؤسساً على ما جدّ في حقول اللسانيات العامة والتطبيقية دون إقصاء إحالات تتصل بمبحثنا ربما سبق لها أن أسهمت بما كان يخطر ببالها من جنس الهاجس نفسه.

2) **التشريحات الأربعة للنص** إذا عدنا لنستأنس بأحد التعاريف الأكاديمية الواردة في إحدى "الاسكلوبديات" الفرنسية، فإننا نلاحظ أن هذه الموسوعة تشرّح النص خمسة تشريحات[3]:

1 – تساؤل عن ماهية النص؟ 2– أزمة العلامة 3– نظرية النص 4 – الممارسة النصية أو الدالّية

2-1) **ما هو النص؟** بالنسبة لما هو مألوف أن النص هو البنية السطحية الظاهرية للعمل الأدبي، هو النسيج لكلمات تستعمل في هذا العمل استعمالاً منسَّقاً بكيفية تفرض معنى مستقراً وحيداً بقدر الإمكان. وعلى الرغم من الطابع الجزئي والمتواضع لهذا المفهوم (النص) الذي هو بعد كل اعتبار ليس إلا شيئاً un objet ممكناً إدراكه من قبل المعنى البصري par le sens visuel، فإن النص يشارك في المجد الروحي spirituel في العمل الأدبي، وبما أن النص اللساني هو ما يكتب، حسب المتعارف عليه تقليدياً، فهو مشكَّل من الكتابة، لأن الرسم نفسه للحروف التي تبقى خطية linéaire يبرز أكثر من الكلام الشفهي، وإلا فإن زخرفة ما لمنسوج اشتقاقياً هي "نص". وكم كان دي سوسور عظيماً

حين أشار، وهو يتحدث عن امتزاج صفات الوحدة مع الوحدة ذاتها، إلى أنه "في اللغة كما في أية منظومة أعراضية[4] أن ما يميز علامة ما إنما هو كل ما يشكّلها، وهذا الاختلاف هو الذي يشكل الصفة، كما أنه يخلق القيمة والوحدة معاً[5]. والفرق بين النص اللساني وما عداه من نصوص لا منتهية أخرى أن الأول شكلي والثاني مادي، فالمتعة فيها واحدة وتتفاوت لذتها بمدى هذه النصوص في غير ذاتها لكن في ذات المتلقي.

وما أشير إليه أعلاه بشأن دي سوسور الذي لطالما ردّد بأن "اللغة شكل وليست مادة"[6]،فلا يفيد أن الرجل كان يفضل الخطي على المنطوق، ولكنه يشير إلى أن الناس لا يعرفون عامة اللغات إلا كتابياً، أمّا اللغة الأم فهي وثيقة لغوية ماثلة دائماً بين أيدينا مبرزاً أسباب سمو ما هو خطي على الشكل المنطوق[7].

2-2) **النص شيء معنوي**

ولعل كل ما في الأمر أن النص المكتوب يتميز بدوام الاستقرار وأقصى ما يمكن من الأمان لتعويض هشاشته وعدم دقة الذاكرة في الحفاظ على بنيته الأصلية، علاوة على أن أحداً لا يعترض على رسم خُطَيّطاتِه التي تمثل معناه أو جنسه أو نوعه أو قل هكذا: "إن النص سلاح ضد الزمن والنسيان ومكر الكلام الذي يرجع صاحبه بكل سهولة عن قوله كأن ينكره أو يتنصل منه. مفهوم النص إذاً مربوط تاريخياً بالعالم المؤسساتي كله: قانون، أدب، تعليم، ومن ثم فإن النص شيء معنوي: إنه الشيء المكتوب بصفته يشارك في العقد الاجتماعي ويخضع ما يلاحظ ويحترمه"[8].

2-3) **أزمة العلامة**

2-3-1) **النص والعلامة** يردف المصدر نفسه المشار إليه آنفاً أن النص من وجهة نظر إبستمولوجية du point de vue épistémologique في معناه الكلاسيكي يعدّ جزءاً من مجموعة تصورية مركزها العلامة. شرعنا نعرف الآن بأن العلامة هي تصور تاريخي وحادث مصطنع تحليلي وحتى إيديولوجي، وطفقنا نعلم أيضاً بأنه يوجد تمدّن للعلامة منذ عهد الرواقيين les stoïciens إلى عهدنا هذا، وعليه فإن "مفهوم النص ينطوي على أن المرسلة المكتوبة متمفصلة articulé كعلامة: من ناحيةِ الدالّ (مادية حروف وتسلسلها في كلمات وجمل وفقر وفصول)، ومن ناحية أخرى

المدلول le signifié المعنى الأصلي في الآن ذاته ومشارك في المعنى univoque ونهائي ومحدّد بوساطة التصحيح للعلامات التي تحمله. فالعلامة الكلاسيكية وحدة مغلقة close يوقف إغلاقها المعنى ويحول دون ارتجاجها. على النحو ذاته بالنسبة للنص الكلاسيكي: يغلق العمل الأدبي، يسلسله في حروفه ليصل بها إلى ضفة مدلول النص"[9].

2-3-2) **أدبية وسيادة النص:** توجد أدبية النص la littéralité du texte مودعة dépositaire في أصله وقصده، وفي معنى مطابق له سواء أتعلق الأمر بالبقاء أم بالوجود من جديد في حالة ضياعه أو فساده مما يتطلب إعادة تكوينه؟، وهو أمر لن يكون مريحاً، لأن النص لا يكتب أو يقال إلا مرة واحدة حتى لو تعلق الأمر بكاتب واحد، وقائل واحد.

ويأبى النص إلا أن يسود ليصير الغرض نفسه لكل التفسيرات العادية والمقدسة، له من السر ما يؤهله لإعادة تكوين الدال مفسحاً المجال إلى التأويل المطابق للمدلول، فالنص هو الاسم للعمل الذي يسكنه بوساطة معنى وحيد، معنى "حقيقي"، ومعنى نهائي، إنه هذه الأداة العلمية التي تعيّن سلطوياً القواعد لقراءة أبدية. إن الإدراك الذهني للنص بوصفه إدراكاً قائماً على الإدراكات الحسية القديمة هو إدراك، بطبيعة الحال، مرتبط بميتافيزيقيا métaphysique، ويعنى بها أن النص يدل على "الحقيقة". مثلما يُضْفِي اليمين le serment حقيقته على الكلام يضفيها النص على المكتوب.

3-3-2) **نقد العلامة:** ما سُمّي بأزمة العلامة التي ظلت طوال قرون تتصارع مع "الحقيقة" مروراً بعدة تجارب وممارسات أدبية ونقدية وفلسفية وحتى إيديولوجية متأخرة فضلاً عن النظريات اللغوية والفقلغيّة (فقه اللغة)، أسهمت اللسانيات الجديدة بكشفه حتى وإن تم ذلك بكيفية غامضة وجدلية dialectique، ومنها اللسانيات البنيوية التي كرست علمياً (اللسانيات الديسوسورية بوجه خاص)، التصور الجديد للعلامة بشقيها (الدال والمدلول) معتبرة هذا التصور برهاناً على الانتصار لميتافيزقيا المعنى، وفي أوج اللسانيات البنيوية منذ عام 1960 برز في دنيا البحث الجديد باحثون منبثقون غالباً من اللسانيات نفسها ليشرعوا في نقد العلامة ووضع نظرية جديدة للنص (المسمى قديماً أدباً).

2-3-4) نظرة اللسانيات إلى النص

ومما ينبغي أن يلمح إليه أن اللسانيات لجأت إلى تكريس عدة أدوات للتقرب من دلالة النص وقضاياه المطروحة محبذة أن تكون هذه الأدوات فعالة وجديدة وغير أحادية، واتسمت بالتقرب إلى كل ما من شأنه أنه داخلي، ولم تعد تنظر إلى النص على أنه مجرد تاريخ زامن حدثاً، بل اهتمت بتحليل الخطاب الأدبي، لأن اللسانيات تصف نفسها بأنها تتوقف عند الجملة وتتكفل بالعناصر التي تؤلفها (تراكيب، وحدات دالة، فونيمات) متسائلة عن الوحدات البنيوية التي تكوّن الخطاب الذي عادة ما يكون أبعد من مجرد جملة، ولاحظت أن النص لا يتموضع في المستوى نفسه الذي تتموقع فيه الجملة، وفي هذا المعنى رأت ضرورة تمييز النص عن القراءة التي تمثل وحدة تبوغرافية typographique (طباعية) من عدة جمل، بل النص من الوجهة النوعية يمكن أن يتوافق مع جملة كتطابقه مع كتاب بكامله، لأن النص يؤلف نظاماً لا يجب أن يتطابق مع النظام اللساني، فكلا النظامين قائم بذاته، وكل ما في الأمر أن النص يطرح علاقة معه مادام أنه مقتدّ منه، وهذه العلاقة، كما يراها تودورف TODOROV، تقوم على التجاور والتشابه contiguïté et de ressemblance في الوقت نفسه[10].

2-3-5) الأزمة العلامية والتوجهات اللسانية

وما سمّي هنا أزمة العلامة تعاقبيا وآنياً يبقى مرتبطاً بالتوجهات اللسانية وحتى الإيديولوجية التي نريد التعرض لها هنا، فمن وجهة السميوطيقا الأدبية الدقيقة أن النص نوعاً ما الشكل المتضمن لظواهر لسانية، لأنه على مستوى النص تدرس الدلالة وتراقب نفسها دلالياً، وليس بوساطة التواصل والسانتكس السردي syntaxe narrative أو الشعريةpoétique وحسب، وهذا الإدراك الجديد للنص أكثر قرباً إلى البلاغة منه إلى الفقلغة (فقه اللغة)، ولا يخفي طموحه لئلا يكون خاضعاً لغير مبادئ العلوم الوضعية التي طغت في فترة طويلة على الوضعيين، وبذلك صار النص يدرس في هذه الفترة الانتقالية كعلم وضعي comme science positive ليس أزيد من أي شيء خاضع لتفتيش متحَفّظ لفاعل عالم مانعاً كل إحالة إلى محتوى أو تحديدات متقدمة خارجية (علمجية[11]، تاريخية، نفسية).

4) نظرية النص؟

4-1) تحرُّرُ النص من الأحكام القيميّة

بالنظر إلى أهمية الأعمال التي حققها التحليل البنيوي للظاهرة الأدبية بوساطة اللسانيات والسيميولوجية المسماة كذلك سيميوطيقا، وبالنظر إلى الإرث الثقيل لمخالفات النظرية القديمة وإلى الإرث اللساني الديسوسوري – بوجه خاص - ولاسيما التقابلات بين اللغة والكلام من جهة، والزمني والتزامني من جهة أخرى، فضلاً عن بثه نهائيا في أزمة العلامة اللسانية المركبة عنده من صورة صوتية سمعية(الدال)، وتصور (المدلول)، وتفضيل المنطوق بالنسبة للمكتوب، والمدلول بالنسبة إلى الدال، فإن النص بدأ يتخلص تدريجيا من كل المرحلة اللاحقة من أحكام قيمية، لأن تفضيل مستوى على مستوى في حد ذاته يشير إلى أفق أزمة نصية لا تزال تراوح مكانها، وإلا فإن هيمنة المدلول (المعنى، المضمون،...) على الدال (الشكل، الصورة الصوتية السمعية،...) في حد ذاتها مربوط بما يسمى مركزية "اللوجوس" Logocentrisme[12]، للفلسفة الغربية المثالية idéaliste "حتى إنه من جراء نقد فلسفي للتصور المتصل بالعلامة، فإن بعض الباحثين، وخاصة جاك دريدا JACQUES DERRIDA، استطاعوا أن يعدّوا نظرية جديدة لمادية اللغة (وهي مربوطة بالفلسفة المادية) مقترحين التصورات للكتابة، للاختلاف ، للخط (trace)، للفاصل الطبيعي بين السطور espacement"[13]، وهذه أمور كلها متعلقة بدراسة الخطوط grammatologie، وتتمثل في ثلاثة أبعاد: النظرية، والنظام، والسيرورة processus[14]:

النظرية	النظام	السيرورة
ترابط Interdépendance	تكامل Complémentarité	تضامن Solidarité
تحديد Détermination	فرجة، إفساح، مسافة Espacement	انتخاب، انتقاء Sélection
نخبة (زخرفة براقة) Constellation	استقلال Autonomie	توافق، تنسيق Combinaison

2-4) القيم الخلافية للبنية اللسانية

ولعل علاقة نظام النص بنظام اللسانيات يتجلى أكثر ويتضح النص بدوره بصورة أفضل حين نحيل على إحدى فكرة سوسور البنيوية القاضية بأنه لا يوجد في اللغة إلا الاختلافات بحيث لا يمكن لأي بنية لسانية أن يقدّر لها أن توجد دون مختلف العناصر التي تؤلفها بناء على علاقات من التعارضات والاختلافات، لكن الرجل بالغ في تقديس المنطوق على حساب الكتابة مما جعل جاك ديريدا يتجاوز المفهوم البنيويّ الغربي التقليدي السائد منذ عهد دي سوسور لافتاً أنظار البنيويين إلى أنه يجب أن نميز بين اللغة من حيث هي أصوات مسموعة منطوقة، ومن حيث هي علامات أو نقوش مرئية مكتوبة"[15]، وميل الفكر الغربي إلى التسليم بوضع اللغة المنطوقة في مرتبة أعلى من اللغة المكتوبة هو الذي أوحى إليه مصطلح logocentrisme، منبهاً إلى أن الكتابة ليست دالاً ثانوياً أو تابعاً بل أصلاً والتي لن يسعى درسها إلى البحث عن بنية مركزية تنغلق على دالّ مركزي، بل البحث عن القيم الخلافية التي تتضمنها عناصر الكتابة من حيث هي الأصل الممكن للغة"[16].

3-4) الحرف والكتابة grammatologie لدى دريدا

إنّ جاك دريدا أعاد طرح التصورات التقليدية للغة والبنية وخطية اللغة المنطوقة ذاهباً إلى أن "الكتابة ملتصقة inhérente باللغة، إلى درجة أن الكتابة نفسها يجب أن تكون معتبرة ككتابة، مما يستلزم إعادة تقويم revalorisation عامّ للدال بالنسبة إلى المدلول"[17]. وهكذا، فإن أعمال دريدا عملت على تحويل الإدراك الذهني التقليدي للعلامة اللسانية والمعنى والتصور إلى ما أسماه grammatologie، وفي النهاية أدخلت أعماله تعديلات على الإدراك الذهني coception نفسه للمتكلم sujet parlant الذي لا ينقطع من أن يكون هو نفسه مركزاً محورياً وأصلاً للغته، لأن هذا الأخير ينتسب إلى نظام الاختلافات، ولا يتشكل إلا لينقسم: "الذاتية مثل الموضوعية أثر من آثار الاختلافات وأثر مسجل في نظام الاختلاف"[18]، ويذهب إلى أنه من المؤكّد على المستوى الدقيق للسانيات أن تذهب نظرية مثل هذه لِتَحول دون التبديل الفونولوجي للفئة النحوية hypostase للعلامة، ومن ثم فإن ميتافيزيقيا الكتابة الصوتية ينبغي أن تكون الماهية substance الخطية للكتابة،

بل أعلن "أن دراسة الخطوط العامة مدعوة لامتصاص اللسانيات الفونولوجية والتي لن تكون منذ الآن إلا منطقة خاضعة ومحصورة داخل دراسة الخطوط"[19].

4-4) بين دريدا وشومسكي

إن نظرية جاك دريدا وُجِدَتْ كمحاولة لتجاوز الطريق المسدود الذي بلغت حاجزه، ولعل الفرق بين دريدا وشومسكي أن الأول أوجد نظريته لانقاذ البنيوية بينما أحدث تشومسكي نظريته التوليدية التحويلية الشهيرة للثورة في وجه البنيوية التي في نظره آتت أكلها، وآن لها أن تقف، أو على الأقل أن تراجع نفسها، لأنه "لا يوجد بين النحو التقليدي والبنيوي اختلاف في الطبيعة بل اختلاف في الكمية، فكلاهما ينطلق من النص المكتوب أو المنطوق نحو إعادة تكوين بسيط للمعطيات اللغوية، ولا شك أن علم اللغة البنيوي يمثل تقدماً لا تُجحَد إنجازاته، إذ تخطّى المرحلة الجمعية لعلم النحو التقليدي أي إلى المرحلة الوصفية، ولكن كلا العملين يتميزان بنزوع تصنيفي محض لا هدف له إلا الحصول على تصنيفات لغوية تفضي إلى تصنيفات أخرى أدق منها، لقد كان علم اللغة يصف اللغة ولا يفسّرها"[20]، مما جعل شومسكي يَجِدّ في اقتراح طريقة نوعية تسمح للدارس بالعبور من المرحلة الوصفية إلى المرحلة النظرية التفسيرية.

5-4) ثورة دريدا على مركزيّة اللوجوس

أياً كان الأمر، فإن نظرية دريدا تقوم أساساً على التمييز بين اللغة "من حيث هي أصوات مسموعة منطوقة ومن حيث هي علامات أو نقوش مرئية مكتوبة"[21] ذاهباً إلى أن "التراث الفكري للحضارة الغربية يقوم على تسليم يضع اللغة المنطوقة في مرتبة أعلى من اللغة المكتوبة على نحو صارت معه الأولى هي اللغة بألف لام التعريف، وصارت الثانية مجرد صورة تابعة كأنها دال ثانوي على دال أصلي يسبقه في الوجود ويعلوه في الرتبة"[22] ثائراً على مبدأ نزعة "مركزية اللوجوس" مؤكداً أهمية الكتابة التي لن تغدو، مثلما يُعْتَقَد، تابعاً لما قبله بل هي أصل في الآن ذاته، ودراستها لا يسير في اتجاه البحث عن بنية مركزية تنغلق على دال مركزي، بل يسير في سبيل البحث عن القيم الخلافية التي تشملها الخطوط أو الكتابة مع عدم استبعاد اعتبار هذه الأخيرة هي الأصل الممكن للغة، وتغدو "دراسة الكتابة – في النهاية – دراسة للفاعلية الحرة التي تمارسها الكلمات المنقوشة على

الصفحة –الكلمات التي تغدوا آثاراً لا تفهم إلا من حيث علاقتها الخلافية بغيرها من الآثار، والتي لن تنغلق على معنى ثابت بل تنفتح على معاني متصارعة تتصل بعملية من اللابناء الذي يدمّر ميتافيزيقيا البنية عند البنيويين"[23].

6-4) انتقاد نظرة النص للغة الشارحة métalangage

ويرى مصدر آخر أن اللغة التي يقرر استخدامها من أجل تعريف النص غير مستخفّ بها مادامت تنتمي إلى نظرية النص لوضع كل تلفظ énonciation موضع أزمة، ولذا فإن نظرية النص لم تتأخر لأن تنتقد على الفور كل ما هو لغوي métalangage (اللغة الشارحة)[24]، وكل خطاب "تَعَلُّمُني" scientificité، فالعلوم الإنسانية لم تضع حتى الآن لغتها المستعملة بحتة على بساط البحث، ولا تعتبرها أكثر من مجرد وسيلة أو شفافية "النص مقطع من اللغة fragment de langage أي يُمَوْضِع نفسه في منظور من اللغات ليبلّغ إحدى المعارف أو أحد الأفكار النظرية حول نفسه"[25].

7-4) جوليا كريستيفا والنص

وتكاد الآراء تجمع على أن من اقترب من تعريف النص اقترابا وجد ارتياحاً مقبولا لدى المهتمين بالموضوع جوليا كريستيفا JULIA KRISTEVA التي عرفت النص بقولها: "نعرّف النص كجهاز وراء لساني translinguistique يعيد التوزيع للغة واضعاً إياها في علاقة مع كلام تبليغي communicative، موجّهاً إبلاغه مباشرة مع مختلف الملفوظات السابقة العهد أو التزامنية"[26].

ويترتب على التعريف السابق للنص من جوليا كريستفا إثارة عناصر منها ما يتعلق بالممارسات الدوالية، ومنها ما يتعلق بالإنتاجية، ومنها ما يتصل بالدلالة، ومنها ما يعود إلى النص المنجز أو بنية النص العميقة، ومنها ما يرتبط بالبِنْصة.

5) الممارسات الدوالية Pratiques signifiantes

1-5) الممارسة الدالّية

إن اللسانيين، وبدون استثناء، كلهم يحيلون، وهم يتحدثون عن الدال، هذا الأمر على دي سوسور، أو في أبعد الحالات ينطلقون منه. ولذلك ماكنا بدعاً من هذا الأمر في شيء إذا أشرنا إلى

الدال في النظرية الديسوسورية بأنه الشكل الملموس المدرك حسياً perceptible في الأذن، وهذا الإدراك الصوتي الحسي سماه الرجل صورة صوتية سمعية تحيل في الآن ذاته على تصور concept يسميه signifié (مدلولا). وإذاً، صوت واحد أو سلسلة من الأصوات هي التي يمكن أن تكون ممثَّلة ثانوياً بوساطة رموز خطية graphiques، ويصر اللسانيون حتى الآن على أن الدال خطي linéaire دائماً، بمعنى أن عناصر الدال تتابع الواحد تلو الآخر دون أن تكون متزامنة simultanés[27] أي كل صوت يسمع أو يكتب أو ينطق لا يتواقت إلا مع ذاته ترتيباً وزمناً.

ومن ثم، فإن الدال هو الوجه أو السطح المجهور أو المظهر المادي لمدلول، حتى وإن كان دي سوسور أشار بقوة إلى أن اللغة شكل وليست مادة، وهنا ندخل في ميتافيزيقيا لغوية، لأنه بمجرد القول بأن العلامة اللسانية التي لا تنفك موضع جدل حتى الآن "على الرغم من كل ما أنجز، فإن كل شيء يبقى تقريباً في حاجة إلى عمل (في علم الدلالة بوجه أخص)... معظم التصورات منها (اللسانيات) لا تبرح مبهمة ومحل جدال controversé، وهكذا، فإن الاتفاق حول تصورات أساس مازال بعيدا تحقيقه كما هو الحال بالنسبة للعلامة، اعتباطية العلامة، ما يرجع إلى اللغة مما يعود إلى الكلام،..."[28] بأنها (العلامة) محصول نتيجة التداعي أو الترابط l'association لدال ومدلول أو أنها التداعي لصورة صوتية سمعية بتصور نكون قد دخلنا إلى ما وراء اللسانيات translinguistique.

ويرى اللسانيون المتأخرون أن الدال يسبّب إحالة إلى "الفونولوجيا"، وبعبارة أخرى تتالي الفونيمات[29] التي تكوّنه، فكلمة "ورقة" مثلاً تعدّ كإحالة مطابقة identique مع كل الأعضاء للمجموعة اللغوية نفسها، في حين أن التحقيقات الفعلية لهذا التتالي لوحدات الدال الصوتية يتنوع بطبيعة الحال من متكلم إلى آخر لأسباب عدة منها نوع الصوت والنبرة على الصوت نفسه من متكلم إلى آخر والتقصير أو المبالغة المفرطة في النطق... حتى إن كانت دراسة هذه البدائل الفردية variantes individuelles مما يدخل في دائرة اختصاص الصوتيات phonétiques وليس من قبل علم وظائف الأصوات phonologie[30].

وكون انتماء الدال إلى الفونولوجيا بوصفه المظهر الفونولوجي لتتابع الأصوات التي تشكل المظهر المادي للعلامة يؤكده غير مرجع واحد، غير أن التبدلات الفردية وصفاتها المتباينة من إبهام وعيوب في النطق وغيرهما من الظواهر الصوتية مما يدخل في إطار الصوتيات الميدان الذي يجعل أصواتاً في اللغة محققة فعلياً أو مُعيَّنة، لكن الدال الذي لن يبقى، مع ذلك، إلا فرضياً أو تقديريا Virtual مشترك بين المجموعة للجماهير المتكلمة[31].

2-5) الدال والعلامة (الكلمة)

وإذا كنا نعلم اليوم من خلال التراث اللساني الديسوسوري بوجه خاص، بأن الدال اللساني يمتد في خط زمني، وفي كل عبارة نتلفظها لا يسمح بأكثر من حدث صوتي وحيد خلافاً للأنظمة السيميولوجية الأخرى حيث يستطيع الدال أن يقدم ما يسمى وقوعات مصاحبة des co-occurrences بحسب أبعاد عديدة مثل اللوحات أو الأنصوبات أو أعمدة الإشارات، فإن مفهومه، كما حدده صاحبه، لا يخلو من أية إشكالية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل MARINAYAGUELLO، والشيء نفسه تساءل حوله آخرون: "إذا كانت العلامة تداعياً لدال ومدلول فهل نشبّهه بالكلمة؟ يجب من أجل ذلك إهمال وقائع أخرى ذات بال كبير: على الرغم من اختلاف دوال في فرس وأفراس[32]، فهل تمثل تمثيلاً أدنى الكلمة ذاتها في: طاولة وطاولات؟ وهل العلامة الدنيا le signe minimal أقل درجة من الكلمة le mot؟ أي هل سابق un préfix وعلامة إعراب (أو لاحقة) une désinence... هما علامتان، ولهذا السبب تؤلفان combinent دالاً ومدلولاً؟ بالنسبة لسوسور، فإن الأمر ليس أزيد من معتقد حول الكلمات المركبة تركيباً مزجيا amalgames للدوال، لكن أين هي العلامة؟ وهل العلامة التي تتوافق في هذه الحالة مع مدلولين تكوّن في الآن ذاته علامتين؟، والحالة هذه أن داله غير القابل للتحليل inanalysable يجب أن يقوم بالتنسيق بدور تصورين اثنين"[33].

وعلى العموم، فإن الالتباس لا يزال مخيماً على الدال، ولا ينفك يطرح في شموليته المشكل للعلامة، ومثلما أثير أعلاه، فإننا لا ندري إذا كانت الكلمات الاندماجية مثل امرئ القيس،ونواطحات السحاب،... تقابل علامة واحدة فقط؟ وإذا كان الأمر كذلك فمعنى هذا أن دالاً

واحداً، يحيل على مدلول مركب من مدلولين من جهة أخرى هما متمايزان، أو دالاً واحداً يحيل إلى مدلولين موجودين تحت أشكال أخرى.

5-3) مفهوم العلامة في اللسانيات الغربية

ولعل مفهوم العلامة في الدراسات اللسانية الأوروبية وما صاحبها من غموض وإشكال حتى الآن جعل مفهومها أقل أهمية في اللسانيات الأمريكية، إذ ثنائية العلامة بالنسبة لبلومفليد تندرج في إطار التصرف أو السلوك، وبالنسبة لأوغدن OGDEN وريشاردز RICHARDS، فإن العلامة اللسانية تتميز بنموذج مثلثي triangulaire، وبالنسبة لهلمسليف فإن الدال والمدلول عند سوسور يقابلان عنده على التوالي: التعبير expression والمحتوى contenu وهما مستويان من اللغة بحيث كل مستوى من مستويات اللغة ينقسم إلى شكل forme ومادة substance "العلامة بصفتها ذات جسامة مكونة من وجهين، وهي مفتوحة في كلا الاتجاهين، في الداخل نحو مادة المحتوى، وفي الخارج باتجاه مادة التعبير"[34].

وأما اعتباطية العلامة في هذا التقسيم الهلمسليفي فتكمن من جهة في العلاقة بين الشكل والمحتوى وبين الشكل والتعبير، ومن جهة أخرى تقوم في العلاقة بين الشكل والمادة substance[35] داخل كل من هذين المستويين، ومن ثم فإن العلامة عند هلمسليف ضِعْفان: علامة لمادة ومحتوى، وعلامة لمادة وتعبير.

5-4) النص والممارسة الدالية

وأما النص في إطار الممارسة الدالية، فإنه يتمتع بامتياز خارج لغوي، والامتياز الذي يُضْفَى عليه هو من قبل حقل السيميولوجيا لكن ما هي الممارسة الدالية؟ هي قبل أي شيء نظام دالي مُمَيَّز déférence تابع لتصنيف دوالّ (لا إلى جملة قَالِب عام matrice universelle للعلامة)، هذه الصرامة للتفريق سبق أن طرحت من قبل مدرسة براغ اللسانية التي تشترط أنه لا تحدث الدلالة بالكيفية نفسها ليس فقط بحسب المادة للدالّ (هذا التنوع يؤسس السيميولوجيا)، بل أيضا بحسب الجمع le pluriel الذي يصنع الذات المتكلمة sujet énonciateur (التي عملية قولها غير مستقرة – تتم دائماً تحت الانتباه – تحت الخطاب للآخر)[36].

غير أن هذه الممارسة الداليّة لا تتم على مستوى التجريد المتعلق باللغة مثلما كان يلح في ذلك دي سوسور، بل تتم بحسب عملية، ووفق عمل يوظف فيه وفي الآن ذاته وبحركة واحدة، نقاش الموضوع المرصود للحديث أو الجدل أو التبليغ وكذا السياق الاجتماعي "مفهوم الممارسة الدالية n'est pas un acte l'acte الذي تتضمنه ليس فعلاً لعقل d'entendement (والذي سبق له أن وصف من قبل الرواقيين les stoïciens والفلسفة الديكارتية)، فالموضوع le sujet ليس هو العبارة الديكارتية الجملية "أنا أفكر"، إنه موضوع جمعي c'est un sujet pluriel معالجته النفسية إلى عهدنا هذا استطاعت الاقتراب منه إلى حد ما. أيُّ أحدٍ لا يقدر على الادّعاء بتقليص التبليغ إلى تلك البساطة المفترضة بوساطة اللسانيات: باث، قناة، مستقبل، إلا بالاستناد ضمنياً sauf à s'appuyer implicitement على ميتافيزيقيا للموضوع الكلاسيكي أو على مذهب تجريبي empirisme[37] ملاحظته الساذجة هي أيضاً كلها ميتافيزيقية، وفعلاً فإن الجمع le pluriel يكون على الفور في صدر الممارسة الدالية تحت الأنواع للتناقض، ومن ثم فإن الممارسات الدالية حتى سلمنا مؤقتاً بعزل إحداها، فإنا ترتبط دائماً بجدلية dialectique وليس بتصنيف classification"[38].

6) **الإنتاجية** La productivité

لعل مصطلح productivité الدال أصلاً على قوة الإنتاج أو الزيادة فيه أيا كان مصدر الإنتاجية التي لطال تغنت بها الاشتراكية البائدة لدليل على تأثر من وسم بها العمل الأدبي بذلك المفهوم الإيديولوجي، لقد حاول المنظرون أن ينزّهوا النص الأدبي من أي تأثر إيديولوجي خارجي حتى ولو كان الأمر يتعلق بصاحب النص نفسه من داخله لا من خارجه، ولكن، فيما يبدو، لم يستطيعوا التخلص ولا حتى التملص مما كان يجري ويتداوله في عالم المال والبورصة والاقتصاد، وكأن العمل الأدبي صدرت بشأن مصطلحاته أحكام نافذة قابلة أبداً للاستئناف، فهي على مر الدهور والعصور متغيرة خلافاً لمصطلحات في علوم موازية أخرى، إذ ظلت الانقلابات تسود المصطلحات الأدبية من فلسفية ولاهوتية وميثولوجية وإيديولوجية ولسانية... والبقية ستأتي ما في ذلك شك.

وما من ريب، في أن هذا المصطلح مستوحى استيحاء إديولوجياً ثم قَنَّع المشبعون به ما يُنتَج أو يُبْدَع لسانياً، وجعلوا قابلية أو قوة الإنتاج فيما يُمارَسُ مادياً ومهنياً ونشاطاً عملياً يعادل ما ينتج من وحدات كلامية لتشكيل منتوج قولي فني، ولذلك أصبح يتاح للسانيين القول بأن إنتاج تعابير جديدة (اسمية، ونعتية، ونحتية، وقولبيّة،...) هي إنتاجية لكسيكية، ويُقْصَد بهذه الإنتاجية كل ما لم يسبق له أن تلاقى من تعابير في جمل محقّقة، ومن ثم لم يَرَ النَّصيّون حرجاً في إسقاط مصطلح الإنتاجية على كل قابلية أو قوة خلاقة يتبلور نصّ فني بموجبها لأول وهلة إلى الوجود الفعلي بممارسة يتفرّد بها عن سائر نصوص سبقته أو نصوص تعاصره أو تلحقه.

وترى جوليا كريسّتفا أن إنتاجية نص تكمن في صنع من اللغة من خلال إنشاء معاني في ممارسة تنأى عن كونها فقط مجرد استعمال لبيان أو تبليغ، وهكذا أصبح المسعى ينصبّ "لإعادة تعريف النص ليس بوصفه نتاجاً نهائياً، بل بوصفه عمل خلق، ليس باعتباره سكونياً statique، بل باعتباره حركياً dynamique"[39].

مراجع البحث و إحالاته

1- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط: 1984/3 بيروت، 1059/3 أي: يعني منتهى بلوغ العقل.

2- أنظر: المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 608.

3 - Encyclopédie universalise de France, S.A, 1980, p : 370 – 374.

4- علماً بأن مترجمي النسخة التي بين يدي ترجما كلمة " sémiologie " ب"أعراضية".

5- محاضرات في الألسنية العامة، دي سوسور، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، ط1984/1، بيروت، ص: 147.

6- نفسه، ص: 147.

7- أنظر المرجع السابق، ص 39 وما بعدها.

8 - Encyclopédie, p : 371.

9- المرجع السابق، ص: 371.

10 - Encyclopédie universalise, p : 371 – راجع

11- علمجية نحت لعلم الاجتماع (عَلْمَجَ يُعَلْمِجُ عَلْمَجة: فَعْلَل يُفَعْلِلُ فَعْلَلَة).

12- مصطلح يدل على نوع من الميتافيزقيا، وساد هذا المصطلح في الفكر الفلسفي الغربي من العصر الإغريقي (من بعد أفلاطون) إلى عهد ف. دي سوسور،

13 - Révolution en linguistique, Robert Laffon, Grammont, 1976, p : 113.

14- نفسه، ص: 112.

15- عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، إديث كيرزويل، ترجمة: جابر عصفور، عيون. الدار البيضاء (المغرب)، ط:1986/2، ص: 274.

16- نفسه، ص: 274.

17 - Révolution en linguistique, p : 113.

18 - Révolution en linguistique, p : 113.

19- نفسه، ص: 114.

20- علم اللغة، دانييل مانيس (الموقف الأدبي: العددان 135، 136، سنة 1982). اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

21- عصر البنيوية، ص: 274.

22- نفسه، ص: 274.

23- نفسه، ص: 274.

24- métalangage لغة شارحة أو واصفة على أنها تصف نفسها بنفسها أي تستعمل ذاتها أو نظامية اللساني الخاص بها لتقعيد قواعدها وتقريرها مثلاً.

25 - Encyclopédie, p : 371.

26- نفسه، ص: 371 – 372.

27 - Dictionnaire de la linguistique, sous la direction de Georges Mounins, Presses Universitaires de France, 1974, p : 300. :راجع -

28 - Pour comprendre la linguistique, Mrina Yaguello, éditions du seuil, 1981, Paris, p : 15.

29- أي الوحدات الصوتية الصغرى التي تمثل المستوى الثاني من التمفصل.

30- أنظر: - Dictionnaire de didactique des langues, R. Galisson, D. Coste. Hachitte, 1975, p : 499

31 - Dictionnaire de linguistique, p : 442. J. DUBOUS :أنظر -

32- جمع cheval (فرس) في الفرنسية هو: chevaux لكن الفرس في العربية جمعت على غير لفظها (خيل) وعلى لفظها (أفراس).

33- المرجع السابق، ص: 442.

34 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 499.

35- يمكن أن تترجم هنا: substance إلى: ماهية، فحوى، جوهر،... لكنا قدّرنا أن المادة أنسب على الرغم من مقابلة هذه الأخيرة: matière، ولربما كانت الماهية أكثر قرباً هنا من المادة نفسها.

36 - Encyclopédie, p : 372.

37- Empirisme هي التجريبية (أساليب الثقافة القديمة).

38- المرجع نفسه، ص: 372.

39 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 443.